الثورة الجمعة 24 صفر 1432هـ الموافق 28 يناير 2011م العدد (16879)

صنعاء القديمة: الإنسان – الأرض والسمو الحضاري الذي لا يفقد نبض الحياة

كم من العشق يكفي لنقرأ نشوة الياجور كلما انسابت نجوم العطر؟؟

تعتبر صنعاء القديمة تحفة معمارية فنية وتاريخية تتميز بطابع فنها المعماري المتفرد، تعود جذوره إلى ما قبل آلاف السنين وصنفتها منظمة اليونسكو ضمن أهم المدن التاريخية على المستوى العالمي، وتذكر اليونسكو في تقاريرها أن مدينة صنعاء بنيت في واد جبلي يرتفع عن مستوى سطح البحر حوالي (٢٢٠٠) متر وأصبحت مأهولة بالسكان منذ أكثر من (٢٥٠٠) سنة، وفي القرنين السابع والثامن الميلادي غدت مركزاً هاماً لنشر الإسلام، وذكرها الكثير من الرحالة والتاريخيين في كتبهم بأنها كنز معماري وثقافي وفني، وتغنى بها الشعراء عبر الأزمنة واستهوت المستعمرين والزوار والفنانين.. إلخ، وحظيت بمكانة وشهرة عالمية.

ومع مرور الوقت والنمو السكاني المتسارع والهجرة الداخلية الوافدة إليها وغير ذلك من العوامل أضحى نسيج وحدود مدينة صنعاء القديمة مهدداً بالتشويه والطمر وهو ما يستدعي وقفة جادة من الجميع للحفاظ على إرثها الحضاري ونسيجها العمراني والفني والهندسي الإبداعي والذي يؤكد الخبراء والمهندسون وعلماء الآثار والمهتمون بأنه يواجه تحديات جمة تدعو للقلق واتخاذ التدابير والاحترازات اللازمة في أسرع وقت للحافظ عليها.

تحقيق/ نبيل علي

خجل واستهجان

الإخوة/ عبد الناصر قاسم، وليد سيف، عادل الحيدري، أحمد الصايدي، جميل يوسف، طلاب يمنيون تم ابتعاثهم لدراسة الهندسة المعمارية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وروسيا – على التوالي يذكرون بخجل أنهم لم يعرفوا أهمية وفرادة إرث صنعاء القديمة المعماري إلا بعد سفرهم للخارج وترددهم على مراكز الدراسات والتقائهم بعلماء آثار ومؤرخين وغيرهم هناك.

يضيفون بأن زملاءهم الطلاب من تلك الدول في زياراتهم الأولى التعارفية إلى أماكن إقامتهم (أماكن إقامة اليمنيين) يسألون الطلاب اليمنيين باستهجان ونبرة غضب لماذا لم نشاهد في سكنكم مجسمات لمعالم من مدينة صنعاء القديمة أو مجسمات منازل مبنية على الطراز الصنعاني القديم.

الياجور لغة الماء

ويقول الأخ/ أحمد الصايدي – بأنه في أول لقاء تعارفي جمعه مع طالبة بريطانية في الحرم الجامعي كان بطلب من زميلته البريطانية بعد أن عرفت أنه يمني، الطالبة (كلوديا جيمس) اختصرت أول اللقاء بمعرفة الأسماء، ثم طلبت منه أن يحدثها عن مدينة صنعاء القديمة ومبانيها والياجور، وأكد الصايدي بأنه لم ينقده من سؤال كلوديا سوى مطلع قصيدة للشاعر اليمني الرائع أحمد ضيف الله العواضي – من ديوان مقامات الدهشة – مطلع القصيدة يقول:

من أين لي لغة بلون الماء
كي أتجاوز المعنى، وأدخل في
تفاصيل المفاجأة الأخيرة، في
مساء سكينة الدنيا أرى غسقاً
تدلى أم ضفائرها الكثيفة، حمرة
الياجور، أم شفة المدينة،
تمتمات الصبح في الأسواق،
أصوات الملائكة، النساء، حفيف أوراق
من التوت المخبأ في حواريها،
سمسرة النحاس.

الحديث عن شغف الأجانب بطراز معمار صنعاء القديمة مذهل للغاية وسؤالهم عنها يحرج اليمنيين بشكل كبير جداً، كما أكد الإخوة/ عبد الناصر، وليد، عادل، أحمد، جميل، أثناء التواصل معهم عبر الهاتف الأسبوع الماضي بعد انقطاع دام لأكثر من عام من بعد سفرهم، بسبب الظروف.

سبتمبر المنقذ

المتفحص لمدينة صنعاء القديمة التي قطنها الإنسان قبل أكثر من (٢٥٠٠) سنة وحتى ما قبل القرن الحادي عشر بنسيجها المكون من (١٦) مسجداً و(٢١) حماماً و(٦٥٠٠) منزل وكذلك مساكنها البرجية متعددة الطبقات ومنازل الياجور القديمة، وفق منظمة اليونسكو، يجد أنها تعرضت لكثير من التشويه والتخريب، مضيفة بأن أكثر فترة تعرضت فيها مدينة صنعاء القديمة للعبث والتخريب، كانت من بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م. وتستدرك اليونسكو قائلة: نحن لا نقصد بأن ثورة سبتمبر المتهمة بذلك، بل نؤكد بأنها كانت وستظل المنقذ لمدينة صنعاء القديمة، وما نقصده هنا هو أنه من بعد قيام ثورة سبتمبر وحتى الآن حدث انفجار سكاني وهجرة داخلية كبيرة باتجاهها، ورافق ذلك توسع عمراني وإقبال وزيادة كبيرة للحصول على مساكن، وهذا أدى إلى تنوع العادات والثقافات والنسيج الاجتماعي والإنساني وإدخال فنون معمارية جديدة.

أ.د/ حاتم الصباحي – نائب رئيس جامعة صنعاء للدراسات والبحث العلمي – أستاذ الهندسة المعمارية /كلية الهندسة/ صنعاء، ذكر أن التوسع العمراني لمدينة صنعاء وصل إلى مائة وخمسة وثلاثين، ضعف مساحة المدينة القديمة تقريباً والتي يعد بناؤها وعمرانها بانتمائه العضوي إليها ملائماً للبيئة المحيطة بها وخصائصها المناخية ويلبي متطلباتها الحياتية في جميع المجالات لأفراد المجتمع من خلال نسيجها العمراني المتميز وتكويناتها الفراغية وطابعها المعماري الذي يمثل نموذجاً متميزاً لعمارة فريدة من نوعها في العالم، استطاع أن يعبر عن حياة المجتمع وظروفه.

يضيف أ.د/ الصباحي – في دراسته عن التوسع العمراني لمدينة صنعاء (١٩٦٣–٢٠١٠م) بأن التوسع العمراني لمدينة صنعاء والذي وصل إلى مائة وخمسة وثلاثين ضعف مساحة المدينة القديمة تقريباً، نتاج لغياب قانون التخطيط والبناء والذي بدوره أدى إلى وجود العديد من المناطق العشوائية واختفاء الفراغات العمرانية في تخطيط المساحة السكنية الجديدة التي تلبي احتياجات المجتمع في مناطق خضراء ومساحات وغيرها ناهيك عن ازدحام حركة المرور على مركز المدينة والاستخدام العشوائي والبناءات المختلفة وغير المنسجمة على مستوى المجموعة السكنية التي تفقد الهوية المعمارية.

العشوائية

د/ آمال العرشي – أستاذ مشارك – قسم الهندسة المعمارية – كلية الهندسة جامعة صنعاء، تؤيد في دراسة لها عن النمو العمراني في مدينة صنعاء ما ذهب إليه، أ.د/ الصباحي قائلة: توسعت مدينة صنعاء القديمة خارج نطاق السور بعد قيام ثورة سبتمبر توسعاً عمرانياً كبيراً في جميع الجهات وأجزاء كبيرة من البناء تمت بطريقة عشوائية بعيداً عن التخطيط والمخططين، إضافة إلى تدمير جزء كبير من السور القديم للمدينة وظهور حيز حضاري جديد مفتوح أدى إلى بروز أشكال معمارية جديدة، وغريبة على البنية المحلية وظهور العشوائيات والازدحام السكاني والاختناق المروري والتلوث البيئي وهذا كله كان ولا يزال على حساب الأراضي الخصبة الزراعية المجاورة لمدينة صنعاء.

وحول توسعات المدينة اليمنية والحفاظ على التربة (مدينة صنعاء) من جامعة تعز، أ.د/ عبد الحكيم العشاوي، أكد بأنه من خلال تتبع نمو السكان في مدينة صنعاء وتوسعها المكاني عبر مسار النمو المعاصر، اتضح أن ذلك أدى إلى ابتلاع مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ذات الكفاءة العالية ما أدى إلى عدم القدرة على توفير الاحتياجات اللازمة لسكان مدينة صنعاء وهو ما تحذر منه دراسات الأمم المتحدة وتصفه بأكبر عدو لإضعاف إنتاجية الأراضي الزراعية.

وهذه ليست فقط المخاطر التي حذرت من آثار تداعياتها اليونسكو على إرث صنعاء القديمة الحضاري ونسيجها العمراني التاريخي المتفرد، بل هناك مخاطر أخرى منها: التوسع في النشاط الاقتصادي والأثر البيئي والأمن والسلامة وذوبان موروث المجتمع الثقافي والفني والإنساني وأنماط الحياة والمعيشة ومظاهر وتقاليد الأفراح والمناسبات والزيارات والمجالس والعزاء والأزياء والأكلات والرقصات والأهازيج والفلكلور والسمرات الشعبية وغيرها كثير يشكل في مجمله تحديات تواجه إرث حضارة صنعاء القديمة أو تستدعي تدخلاً وتوجهاً حكومياً وشعبياً على مختلف الأصعدة يحمي ويخاف على صنعاء التاريخ والحضارة.

القرار الخطأ

يقول السائح/ مايكل غيراد – أمريكي الجنسية: إذا كنت في رحلة سياحية إلى اليمن ولم تكن (مدينة صنعاء القديمة) مبتغاك الأول، حينها تكون اتخذت ونفذت القرار الخطأ، طراز صنعاء القديمة العمراني والمواد المستخدمة في مبانيها وحوانيتها والسماسر والمساجد والأسواق وطرق وأساليب تخطيطها، تشعرك بعمق الارتباط الوثيق بين الإنسان والأرض والسمو الحضاري الذي لا يفقد نبض الحياة مهما تناقص عدد إنسانه الأول والذي لا يرحل أحدهم إلا وتبقى روحه حاضرة المكان لا ينطفئ نبضها وتظل مع الأخريات تحرس الجمال، صنعاء يجب أن تنال حب وعشق كل يمني إذا أرادها اليمنيون أن تكون (صنعاء).

المخرج السينمائي بدر الحرسي – من أصل يمني حاصل على الجنسية البريطانية حول فيلمه (يوم جديد في صنعاء القديمة) الذي تضاربت حوله الآراء وبالذات المهاجمة له، قال: ما أردت أن أجسد له في فيلمي هو عراقة المكان وأواصر الترابط مع الإنسان والتي تتوثق كلما تقدم الوقت، صنعاء التي يتلألأ وميضها كالفيروز في عين كل يمني، وليس مثلما ذكر البعض ممن لا ألومهم لقصر نظرهم وتذوقهم الفني، بل أكن لهم كل الحب والاحترام لخوفهم على صنعاء.

حلول

بالعودة إلى التحديات والمخاطر التي تواجه (صنعاء القديمة) يقترح عدد من المهندسين وأصحاب الشأن والأكاديميين حلولاً متعددة حيال التحديات والمخاطر السالفة الذكر ومن تلك الحلول والمعالجات يدعو الدكتور/ حاتم الصباحي إلى ضرورة إنشاء عدد من المراكز الحضرية في صنعاء القديمة وتوفير الخدمات الكاملة للسكان ومن ثم إعادة توزيع المؤسسات الحكومية والخاصة فيها تخفيفاً للحركة على مركز المدينة مع توفير المناطق الخضراء والمساحات بالمخططات السكنية الجديدة لتنظيم التوسعات العمرانية والمعمارية والحفاظ على هويتها.

ولتحسين مستوى الأمن والسلامة، الدكتور/ أمين خيران، مساعد مدير أمن العاصمة لشؤون الأحياء، يعتبر مقترح الصباحي مدخلاً هاماً إلى تحسين مستوى الأمن والسلامة في مدينة صنعاء القديمة مشيراً بأن أسلوب تشكيل البيئة العمرانية يعد مهما وفعالاً للغاية في تحقيق الأمن والسلامة في الأحياء السكنية عبر تقوية الروابط والعلاقات الاجتماعية بين السكان وتمكينهم من المشاركة في إيجاد الأمن والإحساس به، وبخصوص التوسع الاقتصادي عامة والصناعي خاصة المهندس/ أحمد العيزري، الهيئة العامة للأراضي والمساحة والتخطيط العمراني، يقترح عمل خريطة للأنشطة الاقتصادية والصناعية لمدينة صنعاء القديمة ومتطلباتها حالياً ومستقبلاً من هذا النشاط ومن ثم إبقاء الأسواق القديمة على ما كانت عليه وإيجاد أسواق أخرى في مناطق مغلقة خارجها وكذلك المناطق الصناعية مع الأخذ بعين الاعتبار التوسع العمراني المستقبلي والآثار البيئية.

وأوصى أ.د/ مالك الدليمي – أستاذ المدن والخرائط – جامعة صنعاء – بأن تكون المبادئ القومية والإسلامية المصدر الرئيس لتشريع القوانين والخطط والتصاميم لمستقبل مدينة صنعاء وإعداد الكوادر في هذا المجال وتدريبها في الجامعة في الاختصاصات ذات الصلة كالعمارة والجغرافيا والاقتصاد وضرورة اهتمام وسائل الإعلام بنشر الموروث التاريخي والحضاري والعمراني لصنعاء القديمة والطلب من المختصين المساهمة في الكتابة في هذا المجال واستحداث يوم سنوي للتعريف به بمساهمة حكومية وشعبية وعبر كل الوسائل.

توصيات

وأوصت الندوة العلمية الخاصة بالتوسعات العمرانية في مدينة صنعاء (التحديات والحلول) المنعقدة بصنعاء أواخر نوفمبر الماضي، بتطوير شبكة الطرق في عموم اليمن لتسهيل عملية النقل وضمان توجه المزيد من المهاجرين داخلياً نحو مدن أخرى للتخفيف من الضغط على مدينة صنعاء، والتوجه للحفاظ على ما يمكن من القرى بأراضيها الزراعية في صنعاء وإجراء مسح ميداني شامل لجيولوجية وتضاريس الأراضي الواقعة ضمن حدود أمانة العاصمة لتوجيه نمو مدينة صنعاء نحو الأراضي الأقل صلاحية للنشاطات الزراعية والتخطيط لإيجاد أو تطوير مدن ضمن إقليم صنعاء تعمل كمصدات لسيول الهجرة نحو العاصمة وتوفير فرص عمل لمن تستقطبهم من المهاجرين ودراسة إمكانية تحويل الجيوب الريفية إلى جزء إيجابي متفاعل مع المدينة وغير ذلك.

والأهم وفق منظمة اليونسكو أن يشعر كل من له صلة بصنعاء القديمة وفي المقدمة سكانها وكل مسؤول في الدولة والقطاع الخاص والمواطنين، أن صنعاء القديمة وحمايتها والحفاظ على نسيجها العمراني والإنساني والثقافي والتاريخي والحضاري جزء لا يتجزأ بل كل إرثهم الخاص الذي لا يمكن التفريط فيه أو التهاون حياله، وأن أي عبث أو تشويه في الأصل تشويه للإنسان اليمني وتاريخه وإرثه الحضاري العريق.

أخيراً:

صنعاء .. ما انسابت نجوم العطر في ظمأي!
إلا وأشهق: يا سحرها الأشهى.
كم من العشق يكفيني لأقرأ نشوة الياجور.
سماسر النحاس، الأزقة تصهل في دمي.

- د/ الصباحي: صنعاء توسعت مائة وخمسة وثلاثين ضعف مساحة المدينة القديمة.
- د/ العرشي: البناء يتم بطريقة عشوائية وبرزت أشكال معمارية غريبة.. والتوسع العمراني يجري على حساب الأراضي الزراعية.
- مايكل غيراد (سائح أمريكي): صنعاء القديمة تشعرك بعمق الارتباط بين الإنسان والأرض والسمو الحضاري.. وروح إنسانها الأول ما تزال تحميها.